

الحلقة الثالثة
قصص خلفاء الراشدين

الْقِصَصُ الدَّيْنِي

عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ

عبد الحميد جودة السحار

١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« مَنْ لَكَتَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى
بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ ، فَمُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » .
(قرآن کریم)

ذُفِنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، بعد أن قَتَلَهُ أَبُو لُؤْلُؤَةَ ،
وبعد أن جعلَ الْخِلَافَةَ فِي عَالِي وَعِثْمَانَ وَسَعْدِ بْنِ
أَبِي وَقَاصٍ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَطَلْحَةَ بْنَ عُيَيْدٍ
اللَّهِ . وقد قَابَلَ الْعَبَّاسُ ابْنَ أَخِيهِ عَالِيَّ بْنَ أَبِي
طَالِبٍ ، بعد أن طَعَنَ عُمَرُ وَسَأَلَهُ :

— مَا الْعَهْدُ يَا أَبَا الْحَسَنِ ؟

قال عَالِي :

— جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ .

فَاطْرَقَ الْعَبَّاسُ قَلِيلًا ثُمَّ قَالَ :

— يَا بْنَ أَخِي ، لَا تَدْخُلْ مَعَهُمْ ، وَارْفَعْ نَفْسَكَ

عَنْهُمْ .

فقال عليٌّ في رفق :

- إني يا عمُّ أكرهُ الخِلافَ .

فقال العباسُ في ضيق :

- إذن ترى ما تكره .

وسرى في المدينة قلقٌ بعد دفن عمر ، فراح الناسُ يتساءلون عمَّن يكون خليفة المسلمين ، وأشفق المشفقون على المسلمين أن ينشقوا طوائف وشيعا ، وأن يدب الخِلاف بينهم ، ولما استقرَّ الإسلام بعدُ في الأمصار التي فتحوها ، وجعل المخلصون يدعون الله أن يجنبهم فتنة الدنيا .

واتجه عليٌّ وعثمان وسعدٌ وعبد الرحمن والزبيرُ وطلحة ، رهطُ الشورى ، نحوَ غرفةِ عائشة ، ليجتمعوا فيها ، ويتخبوا من بينهم خليفةً للمسلمين ، وتقابل عليٌّ وعمُّه العباس ، فقال عليٌّ :
- سعدٌ لا يخالفُ ابنَ عمِّه عبدَ الرحمن ، وعبدُ الرحمن صهرُ عثمان لا يخلفون ، فيوليها عبدُ الرحمن

عثمان ، أو يوليها عثمانُ عبدُ الرَّحْمَنِ ، فلو كان
الآخرانِ معي لا ينفعاني ، بَلَّةَ أَنِّي لا أرجو إلاَّ
أحدهما .

فقال له العباس :

- لم أدفعك في شيء إلا رجعت إلى مُسَاخِرًا بما
أكره ! أشرتُ عليك عند وفاة رسول الله صلى الله
عليه وسلم أن تسأله فيمن هذا الأمرُ فأبيت ،
وأشرتُ عليك بعد وفاته أن تُعاجلَ الأمرَ فأبيت .
احفظْ عني واحدة : كلُّما عرضوا عليك القول ،
فقل : لا ، إلا أن يُؤلَّوك .

ودخل على حجرة عائشة ، ثم أقبل عثمان
والزبير وعبدُ الرَّحْمَنِ وسعد ، ولم يُقبل طلحة ، فقد
كان غائبًا ، ودخل ابنُ عمر ، وجاءَ عمرو بنُ
العاص والمغيرة بنُ شعبَةَ ، فجلسا بالباب ، فلمحهما
سعد ، فحصبهما وأقامهما ، وقال لهما :

— أتريدان أن تقولاً حضرتنا وكنا في أهل الشورى .

ودار النقاش بين أهل الشورى ، وكثر بينهم الأخذ والرد ، والجذب والشدة ، وجعل كل منهم يذكر فضله وأحقته بهذا الأمر دون الجميع ، ومرّت ثلاثة أيام ولم ينتهوا إلى رأى ، فقال عبد الرحمن ابن عوف :

— أتدرون أى يوم هذا ؟ هذا يوم عزم عليكم صاحبكم (عمر) أن لا تفرّقوا فيه حتى تستخلفوا أحدكم .

— أجل .

فقال عبد الرحمن :

— أيكم يخرج منها نفسه ، ويقلدها على أن يوليها أفضلكم ؟ (أى على أن يختار أفضلكم) .

سكوا ، وساد السكون برهة ، ثم قال عبد الرحمن :

— أنا أنخلع منها .

فقال عثمان :

— أنا أولُ مَنْ رَضِيَ ، فبأني سمعتُ رسولَ الله
صلى الله عليه وسلم يقول : « آمينٌ في الأرض ،
أمينٌ في السماء » .

فقال الزبير :

— قد رَضينا .

وقال سعد :

— قد رَضينا .

وظلَّ عليٌّ ساكنًا لا ينطقُ حرفًا ، تذكُّرَ قولِ
العبَّاس له : كلُّما عرضوا عليك القولَ ، قل : لا ،
إلا أن يوتوك ، وهمَّ أن يقولَ : لا ، ولكنَّ صوتَ
عبدِ الرَّحمنِ رنَّ في أُذنيه .

— ما تقولُ يا أبا الحسن ؟

فقال عليٌّ :

— أَعْطِنِي مَوْثِقًا لَتُؤْتِرَنَ الْحَقَّ ، وَلَا تَبِيعِ الْهَوَى ،
وَلَا تَخْصُ ذَا رَحِمٍ ، وَلَا تَأْلُو الْأُمَّةَ .

فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ :

— أَعْطُونِي مَوَاقِفَكُمْ عَلَى أَنْ تَكُونُوا مَعِيَ عَلَى مِنْ
بَدَلٍ وَغَيْرٍ ، وَأَنْ تَرْضَوْا مِنْ اخْتَرْتُ لَكُمْ عَلَى مِيثَاقِ
اللَّهِ إِلَّا أَخْصُ ذَا رَحِمٍ لِرَحِمِهِ ، وَلَا آلُو الْمُسْلِمِينَ .

فَأَخَذَ مِنْهُمْ مِيثَاقًا وَأَعْطَاهُمْ مِثْلَهُ ، وَانْصَرَفَ
الْجَمِيعُ وَقَدْ تَرَكَ الْأَمْرَ بَيْنَ يَدَيْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ
عَوْفٍ . وَذَهَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِلَى عَلِيٍّ وَقَابَلَهُ عَلَى
انْفِرَادٍ ، وَقَالَ لَهُ :

— إِنَّكَ تَقُولُ إِنِّي أَحَقُّ مِنْ حَضَرٍ بِالْأَمْرِ ،
لِقَرَابَتِكَ ، وَمَسَابِقَتِكَ ، وَحَسَنِ أَثَرِكَ فِي الدِّينِ ، وَلَمْ
تَبْعُدْ وَلَكِنْ أَرَأَيْتَ لَوْ صُرِفَ هَذَا الْأَمْرُ عَنْكَ فَلَمْ
تَحْضُرْ ، مَنْ كُنْتَ تَرَى مِنْ هَؤُلَاءِ الرَّهْطِ أَحَقُّ
بِالْأَمْرِ ؟

قال علي :

- عثمان .

وانصرف من عند علي ، وذهب إلى عثمان ،

وخلا به ، وقال له :

- تقول شيخ من بني عبد مناف ، وصهر رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، وابن عمه ، في سابقة

وفضل ، ولم تبعد ، فلم يصرف هذا الأمر عني ؟

ولكن لو لم تحضر ، فأى هؤلاء الرهط تراه أحق به ؟

قال عثمان دون تردّد :

- علي .

وقابل علي سعد بن أبي وقاص ، وكان معه

الحسين ، فقال لسعد :

- اتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله

كان عليكم رقيبا ، أسألك برحمته من

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبرحمته مني

هزة منك ، ألا تكون لعبد الرحمن لعثمان ظهيراً
على ، فإنني أدلى بما لا يدلى به عثمان .

وراح عبد الرحمن بن عوف يدور على أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن نزل المدينة
من أمراء الأجناد وأشراف الناس ، يشاورهم
ويسألهم ممن يتخونه خليفة لهم ، وبلغ الجهد
بعبد الرحمن مُتناه ، فأرسل في طلب الزبير وسعد ،
فوافاه الزبير في المسجد ، فسأله رأيته للمرة
الأخيرة ، فقال الزبير :

- نصيبى لعلى .

وأقبل سعد في سكون الليل ، فقال له عبد
الرحمن :

- أنا وانت كلاله (ابنا عم) فاجعل نصيبك لي
فأختار .

قال له سعد : إن اخذت نفسك فتعمر ، وإن
اخذت عثمان فعلي أحبُّ إلى . أيها الرجل باع
نفسك ، وأرحنا وارفع رءوسنا .

- يا أبا إسحاق ، إنى قد خلعت نفسى منها ،
على أن أختار . لا يقوم مقام أبى بكر وعمر أحد
فيرضى الناس .

- فإنى أخاف أن يكون الضعف قد أدركك .
فامض لرأيتك ، فقد عرفت عهد عمر .

وأصبح الصباح ، وخرج الناس إلى المسجد
زرافات زرافات ، ليروا ما قرَّ عليه رأى رهط
الشورى . وصلى الناس الصُّبح ، ثم جمع عبدُ
الرَّحْمَنِ الرَّهْط ، وأرسل إلى أمراء الأجناد ،
وتوافدت جموعُ الناس حتى ارددحم المسجد ، ووقف
عبدُ الرَّحْمَنِ ، فسكت الجميع وأعاروه سمعهم .
فقال :

— أئبها الناس ، إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل
الأمصار بأمصاريهم ، وقد علموا من أميرهم .

فصاح صائح : إنا نراك لها أهلاً

فقال عبد الرحمن : أشيروا عليّ بغير هذا .

فقال عمار بن ياسر ، وكان يحبّ علياً :

— إن أردت أن لا يختلف المسلمون ، فبايع علياً .

فصاح المقداد الأسود ، وكان من شيعة عليّ .

— صدق عمار ، إن بايعت علياً سمعنا وأطعنا .

فصاح عبد الله بن أبي سرح ، وكان يحبّ

عثمان :

— إن أردت أن لا تختلف قريش ، فبايع عثمان .

فصاح آخر مؤمناً :

— إن بايعت عثمان قلنا : سمعنا وأطعنا .

فثار عمار ، وشم ابن أبي سرح ، وقال في

سخرية :

- متى كنت تنصح المسلمين ؟ !

وسكت ابن أبي سرح ، فقد تذكر أن النبي قد غضبَ عليه يوماً ، وأهدرَ دمه .

وأخذ بنو هاشم يعدُّون مناقبهم ، وأخذ بنو أمية يذكرون فضيلهم ، وصاح عمار :

- أيها الناس ، إن الله عزَّ وجلَّ أكرمنا بنبيِّه ، وأعزَّنَا بدينه ، فأني تصرفون هذا الأمر عن أهل بيتِ نبيِّكم ؟ !

فصاح أحدُ أنصارِ بني أمية :

- لقد عدوتَ طورك يا ابنَ سُميَّة (أمّ عمار) ،

وما أنتَ وتأميرُ قریشِ لأنفسِها ؟

غيره نصيرُ بني أمية بأنه عبدٌ ليس له في الأمرِ شيء ، ونسيَ أن الإسلامَ قد سوى بين العبيد والأحرار .

واقربَ سعدُ بنُ أبي وقاصٍ من عبدِ الرحمن ،

وقال له :

— يا عبدَ الرَّحْمَنِ ، افرُغْ قَبْلَ أَنْ يَفْتَنَ النَّاسَ .

فأشارَ عبدُ الرَّحْمَنِ ، فلاذُوا بالصمتِ ، فقال :

— إني قد نظرتُ وشاورتُ ، فلا تجعلُنَّ أيُّها

الرُّقْطُ على أنفُسِكُم سبيلا .

ودعا عليًّا فقال :

— عليك عهدُ اللَّهِ وميثاقُه لتعملنَّ بكتابِ اللَّهِ

وسنةَ رسولِهِ وسيرةَ الخلفيتين من بعده ؟

وفرح أنصارُ عليٍّ ، حَبِبوهُ أَنَّ عبدَ الرَّحْمَنِ قد

بايعَ عليًّا للمسلمين ، ولكنَّ عليًّا قال :

— أرجو أن أفعل ، وأعملَ بمبلغِ علمي وطاقتي .

لم يشأَ عليٌّ أن يتقيَّدَ بسيرةِ الخلفيتين أبي بكرٍ

وعمر ، بل رأى أن يعملَ بمبلغِ علمِهِ وطاقتِهِ

واجتهاده ، فدعا عبدُ الرَّحْمَنِ عثمانَ ، وقال له :

— عليك عهدُ اللَّهِ وميثاقُه لتعملنَّ بكتابِ اللَّهِ

وسنةَ رسولِهِ وسيرةَ الخلفيتين من بعده ؟

فقال عثمان :

- نعم .

قيل عثمان أن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله
وميرة الخلفتين من قبله ، فقال له عبد الرحمن :
- إني أبايعك أميراً للمؤمنين .

فتار أنصارُ عليّ ، وأظهروا استياءهم ، وقال عليّ
لعبد الرحمن :

- ليس هذا أوّل يوم تظاهرتُم فيه علينا ، فصبر
جميل ، والله المستعان على ما تصفون .

وأسرع الناس إلى عثمان ، وأخذوا يبايعونه أميراً
للمؤمنين ، وتلكا عليّ ، فأسرع إليه عبد الرحمن
وقرأ : « من نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن
أوفى بما عاهد عليه الله ، فسيؤتيه أجراً عظيماً » .

فراح علىَّ يشقُّ الناس ، حتى بلغ عثمان الجالسَ
على الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ من المنبر ، وهو يقول :
- خِدْعَةٌ أَيُّهَا خِدْعَةٌ .

وتقدَّم منه وبأيعه ، فأصبح عثمانُ بنُ عفَّانَ أميرَ
المؤمنين ، وثالثَ الخلفاء الراشدين .